

المناظرات اللغوية في مجالس العلماء للزجاجي (ت ٣٤٠ هـ) مفهومها وأسباب نشوئها ومميزاتها المنهجية

م. مؤيد جاسم محمد حسين
جامعة كربلاء – كلية التربية
قسم اللغة العربية

مستخلص البحث :

المناظرات اللغوية في مجالس العلماء لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٤٣٠ هـ) بحث درست مفهوم المناظرة ، وما اعتمدت عليه من أركان ، وما التزم به علماء المناظرات من آداب: ودرس البحث أيضاً لأسباب التي أدت إلى نشوء المناظرات اللغوية، وبرز مميزاتها المنهجية.

Abstract :

The Linguistic Debates in the Courts Of Scholars by Abi Al – Qassim Abdul – Rahman Bin Al Zajaji (430 A.H.) A research where the notion of debate is studied and what bases it relies on and what prestige the scholars of debate were committed to. The research studied as well the reasons that were conducive to the emergence of linguistic debates and the most eminent methodological aspects.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين. وبعد:- تعد المناظرات اللغوية من أبرز الممارسات العلمية التي زخرت بها مؤلفات الأدب والنحو العربي، وكتب الأخبار والمجالس، فوجدت في مجالس العلماء لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٤٣٠ هـ) كثيراً من المناظرات اللغوية، فتوقفت عندها وحاولت دراستها مظهراً أبرز مضامينها وقيمتها اللغوية والأسباب التي أدت إلى نشوئها ثم حاولت دراسة مميزاتها المنهجية وما أضافته للدرس اللغوي. ولقد سمت البحث بـ (المناظرات اللغوية في مجالس العلماء للزجاجي مفهومها وأسباب نشوئها ومميزاتها المنهجية). ولقد احتوت دراستي لهذه المناظرات على ثلاثة مباحث، المبحث الأول: حاولت فيه تحديد مفهوم المناظرة ولقد احتوى على مطلبين الأول درست فيه أركان المناظرة أما الثاني فدرست فيه آداب المناظرة، أما المبحث الثاني فدرست فيه الأسباب التي أدت إلى نشوء المناظرات اللغوية، والمبحث الثالث: درست فيه ميزاتها المنهجية. ثم ختمت البحث بخلاصة شملت أهم النتائج التي توصل اليها. وأسأل الله تعالى التوفيق، والتسديد، وحسن العاقبة، أنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول

مفهوم المناظرة:

لا بد لدارس المناظرات اللغوية في مجالس العلماء للزجاجي (١)، أن يحدد مفهوم المناظرة أولاً، ليتسنى له بعد ذلك دراستها بشكل موضوعي. فالمناظرة في اللغة على وزن (مفاعلة) مشتقة أما من النظر أو من النظر، فإن كانت مشتقة من النظر، فالنظر على نوعين حسي ومعنوي، وقد ميز الخليل بين النظر الحسي والمعنوي فقال: ((تقول نظرت إلى كذا وكذا من نظر العين، ونظر القلب)) (٢). فقولك نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وهو نظر حسي، وإذا قلت نظرت في الأمر أحتمل أن يكون تفكيراً فيه وتدبراً بالقلب، وهذا نظر معنوي (٣). فالنظر الحسي ناظر العين وهو النقطة السوداء الصافية التي في وسط سواد العين وبها يرى الناظر ما يرى، أما المعنوي فهو حس العين، تقول: نظر ينظر نظراً إذا تأمل الشيء بعقله (٤). أما إذا كانت مشتقة من النظر، فالنظر للرجل الذي يراوضه ويناضره، والنظر المثل، ويقال: هو المثل في كل شيء، وفلان نظير فلان: أي مثله لأنه إذا نظر اليهما الناظر، رآهما سواء والنظر للرجل: نُدّه (٥). ولما كانت المناظرة على وزن (مفاعلة) فهذا دليل على اشتراك أكثر من طرف فيها، فقد عرفها الخليل بقوله هي: ((أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتينا)) (٦). فالتأمل لقول الخليل يجد الكلمات (تناظر)، و (أخاك)، (نظرتما فيه معاً) كلها توحى بعملية تفاعل الآراء وصولاً إلى الرأي المشترك وهو حصة ذلك التفاعل، وهذا ما توحى به عبارة، كيف تأتينا؟ ونلاحظ أن الخليل حرص على أن يقول: (أخاك) وهذه الكلمة توحى بعدم التناظر أو التباغض في أثناء التناظر لأن الغاية بلوغ الحقيقة، وهي مطلب الطرفين، والنص كله يوحي بنضج فن المناظرة في عصر الخليل، وهو امر حتمي لأن بدايات هذا الفن على ما يبدو كانت أسبق من ذلك بكثير (٧). وعرفها الزبيدي بقوله: ((المناظرة: المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته)) (٨). والملاحظ على هذا التعريف أنه لم يكن تعريفاً جامعاً مثل تعريف الخليل الذي انطوى على جل أركان فن المناظرة إلا أنه لم يذكر المجلس، والجمهور، ربما لشيوعهما بما يجعلهما بديهية لدى أعلام هذا الفن وجمهوره. وعرفها محمد محيي الدين عبد الحميد بقوله هي: ((تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق)) (٩). والمناظرة تقوم على جملة من الأركان، و مجموعة من الآداب ، هذا ما سنتعرض له في المطلب الأول والمطلب الثاني، من مبحثنا هذا إن شاء الله تعالى.

المطلب الاول:

أركان المناظرة:

الدارس لمجالس العلماء يلحظ ان المناظرات اللغوية تعتمد مجموعة من الأركان وهذه الاركان تمثل عناصر رئيسة في المناظرة لا يمكن ان تقوم إلا بها، وهذه الأركان هي:

١- الموضوع:

يعد الموضوع المحور الذي يدور عليه نقاش طرفي المناظرة، فليس من المناظرة أن يتكلم أحد طرفيها في موضوع ويتكلم طرفها الآخر في موضوع لا علاقة له بالموضوع الرئيس، فيجب في المناظرة تحديد الموضوع الذي يجري النقاش فيه، والذي يتفق عليه طرفا المناظرة أو يقترحه غيرهما كالخليفة أو الوزير أو سواهما. وكثيراً ما يحدد الموضوع بسؤال يطرح في مفتتح المناظرة من احد طرفيها أو من الجمهور، وربما يتفق على البادى بالسؤال كأن يقول المناظر لصاحبه: تسألني أم أسألك (١٠)؟ والسؤال يكون مفتاحاً لموضوع المناظرة، أو قد يحدد على ضوء ما اشتهر به أحد طرفيها من علم أو تخصص. وموضوع المناظرة هو الذي يتحكم بطولها أو قصرها، هذا بجانب مقدرة طرفيها على اتصال حججهما، أو انقطاع حجج أحدهما. فعندما تكون العقائد أو الأديان أو الفلسفة أو الكلام موضوعاً للمناقشة، فإن النقاش فيه يطول، وربما لا نجد ذلك حينما تكون مسائل النحو موضوعاً للمناظرة. وسبب ذلك يرجع الى أن طبيعة موضوعات النحو لا تحتاج الى كثير من تردد الكلام، وتبادل الحجج بين طرفيها، أو لنقل اننا لانجد فيها المرونة التي نجدها في العقائد والأديان والفلسفة وعلم الكلام، حيث تستثار مكامن العقل، فيخلق البحث في آفاقه (١١). ونلاحظ أن لطبيعة الموضوع أثراً كبيراً في الجمهور لما يسمعه من طرفي المناظرة، وكذلك في انشاده له وربما في فهمه واستيعابه. فقد حضر أعرابي مجلس الكسائي وهم يتحاورون في النحو فأعجبه ذلك، ثم تناظروا في التصريف فلم يهتد الى ما يقولون، ففارقهم وأنشأ يقول (١٢): [من البسيط]

حتى تعاطوا كلام الزنج والروم

ما زال أخذهم في النحو يعجبني

كأنه زَجَل الغريبان والبوم

بِمَفْعَلٍ فَعَلٍ لا طاب من كَلِمٍ

٢- طرفا المناظرة:

هما شخصان لكل منهما رأي، أو يمثلان فئتين أو مذهب، وجمعهما خلاف، أو هما عالمان أو أدبيان جمعهما سبيل العلم والأدب، أو دعوة من خليفة أو وزير فتناظرا، كما حصل في مجالس الخلفاء الأمويين (١٣) والعباسيين (١٤) أو مجالس الوزراء في ظل الدولة العباسية (١٥). وربما كان طرفا المناظرة متكافئين، أو غير متكافئين، فسيبويه لا يرى تلامذة الكسائي كفواً له، فيقول للفراء والأحمر: ((لست أكلكما أو يحضر صاحبكما حتى انظره)) (١٦)، وقد يناظر التلميذ أستاذه إذا كان كفواً له، وهذا ما حصل عندما ناظر الفراء الكسائي يقول الفراء: ((مدحني رجل من النحويين فقال لي: ما أختلفك الى الكسائي وأنت مثله في العلم؟ قال فأعجبني نفسي، قال: فناظرته وسابلته، فكأنني كنت طائراً يغرف من بحر)) (١٧). ويقول الزجاج عن أول لقاء جمعه مع استاذ المبرد: ((فلما قدم محمد بين اليزيد بغداد يوماً، وأنا عندي انه إن ناظرني قطعته لا أشك فيه)) (١٨). فلما تناظرا وانتهت المناظرة قال الزجاج في نفسه: ((هذا هو الحق، وما سوى ذلك باطل)) (١٩). فانصرف من عنده ثم بكر اليه كالمعتذر ولزمه.

٣- المجلس:

وهو المكان الذي تحدث فيه المناظرة ويحضره الجمهور، وقد تعقد فيه المناظرة فجأة في اثناء انعقاد حلقات العلم، أو قد يعقد خصيصاً لمناظرة معلومة بين عالمين أو ادبيين معروفين. والمجلس قد يكون مسجداً أو قصر الخلافة أو حضرة الوزير أو في بيت عالم أو أديب أو مدرسة أو في أي مكان يتفق عليه طرفا المناظرة. فقد كان سيبويه يتوعد الأصمعي فيقول: ((لا ناظرته إلا في المسجد الجامع)) (٢٠). وكانت المناظرات بين الكسائي والفراء تجري في مسجد الكوفة قبل انتقالها الى مساجد بغداد. إذ كانت تعقد في مساجدها أيضاً فحينما دخل الفراء الى مدينة السلام وسأل عن الكسائي وذلك في خلافة المهدي قيل له: ((انه يعقد في كل ثلاثاء)) (٢١). فأتاه في مسجده الذي يقعد فيه للناس. ويروي لنا ثعلب أنه دخل دار محمد بن عبد الله بن طاهر في يوم من الايام، فوجد في الدار محمد بن يزيد، وعلي بن عبد الغفار فقال علي: ((قد اجتمعنا وأريد أن أسأل عن مسألة)) (٢٢). ويروي لنا الزجاجي ان الأصمعي لقي الفراء على الجسر ببغداد فقال له: أسألك، فقال: سل يا أبا سعيد (٢٣).

٤- الجمهور:

ركن مهم من أركان المناظرة، وهو على نوعين: خاص وعام اما الخاص فهو الجمهور من العلماء المتخصصين يحضر المجلس، يقول أبو بكر الخوارزمي ليدبع الزمان الهمداني بعد مناظرة جرت بينهما: ((لا بد ان نجتمع في مجلس بعض الرؤساء فننتاظر بمشهد الخاصة والعامة)) (٢٤). فحينما شهد الكمية الجمعة بالمسجد الجامع، أحاط به علماء الكوفة ورواتهم، وفيهم حماد و الطرماح، فجعلوا يسألون، فكان لا يسأل عن حرف وإلا كأنه ممثل بين عيني (٢٥). اما العام – فعامية من يحضر مجلس المناظرة، سواء من أصحاب طرفيها أم مريديهما أم أتباعهما أم تلاميذهما يجتمعون حول المتناظرين، بينما يتقابل المتناظران في المجلس. والجمهور هو الحكم في المناظرة، قال الأصمعي عن مناظرة جرت بينه وبين سيبويه في المسجد الجامع بالبصرة: ((ورفعت صوتي فسمع العامة فصاحتي، ونظروا الى لكتته فقالوا غلب الأصمعي سيبويه، فسرني ذلك)) (٢٦). وحكم للجمهور العام، قد يعبر عنه برفع الأصوات، ((بالهيلة من جانب والحوقة من جانب آخر)) (٢٧).

المطلب الثاني:

آداب المناظرة:

من يدرس مجالس العلماء يجد أن كبار النظار قد التزموا بجملة من الآداب، وهذه الآداب رافقتهم وظلت ملازمة لهم طوال مناظراتهم إذ كانوا موقفين بأن لا مناظرة من غير آداب يلتزم بها طرفيها. ومن جملة هذه الآداب:

١- الالتزام بكشف الحقيقة:

أول أدب من آداب المناظرة هو الالتزام بأن الغاية منها كشف الحقيقة والوصول إليها عن طريق أي طرف من طرفيها، وهذا الالتزام يعني من بين ما يعني – مغالبة الهوى وترويض غرائز النفس، وإذابة ما هو ذاتي وفردى في ما هو موضوعي ومشارك جماعي، فالغاية من المناظرة الوصول الى الحقيقة وليس افحام الخصم، وكشف خطاه وتبيان عثراته وإنما هي لاستخراج ما في عقله والوصل الى علمه. فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول: ((ما ناظرني أحد قط إلا غلبته وقطعته، إلا ابن أبي إسحاق، فإنه ناظرني في مجلس بلال بن أبي بردة في الهمز فقطعني، فجعلت إقبالي على الهمز حتى ما كنت دونه)) (٢٨). فإذا جاءت الحقيقة على لسان الخصم في المناظرة فإن ذلك يستوجب أن ينصرف مناظره من الاحتجاج الى الاعتراف بالفضل والفوز بأن أصاب كبد الحقيقة.

٢- التقابل:

إن جلوس المتناظرين في المجلس أمر تتطلبه آداب المناظرة، وربما كان لطبيعة ذلك الجلوس أثر في تسميتها فبديع الزمان الهمداني يخاطب مناظره أبا بكر الخوارزمي فيقول: ((حضرت لتناظرني والمناظرة أشقت إما من النظر أو من النظر فإن كان اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول)) (٢٩). وكان الخوارزمي قد اتخذ مقعده صدر المجلس، فقال له البديع: ((يا أبا بكر تزحزح عن الصدر قليلاً الى مقابلة أخيك)) (٣٠). ويبدو أن الهدف من هذا التقابل أنه يهيء سماعاً حسناً لكل منهما، فالمجيب يسمع سؤال السائل فلا يلتبس عليه شيء منه، لأن السماع السليم يجعل المتلقي يبني جوابه على أسس صحيحة لم يدخلها وهم أو توهم فسوء الاستماع يفرض الى سوء الفهم بين الطرفين، ويؤدي الى الاعادة والتكرار غير المسوغ هذا فضلاً عن أن تقابل طرفي المناظرة يتيح للطرفين فهم وسائل التعبير الأخرى كالإشارة والتعبير بلامح الوجه التي قد بلجأ إليها أحدهما أو كلاهما، هذا فضلاً عن أن التقابل أنسب لما يجري في المناظرة من مقارنة الحجة بالحجة وسوق الدليل لإثبات الرأي مقابل الرأي المخالف (٣١).

٣- حسن الإصغاء:

إذا كان حسن الإصغاء من أدب المحادثة بين الناس العاديين فكيف بالمتناظرين من العلماء والادباء؟ لاشك أنهم أولى به من غيرهم، فضلاً عن أن حسن الإصغاء مما تقتضيه روح المناظرة، فعلى المناظر أن يستوعب كلام مناظره، ليحيل الفكر فيه ويتأمله لأنه لا يخلو أن يكون سؤالاً أو رأياً فإن كان سؤالاً فمطلوب منه الإجابة عنه، وإن كان رأياً فعليه أما التسليم به أو معارضته، وتبيان ماله وماعليه، وفي الحالين لا بد له من فهم ما يليق عليه مناظره وحسن الإصغاء يتيح ذلك الفهم ويبسره.

٤- الابتعاد عن الصياح:

إن من آداب المناظرة أن لا يعلو صوت المتناظرين وأن أخذت حماسة الظفر أحدهما، فإن ذلك مما لا يحبذ، أما إذا مال المغلوب الى الصياح، فيقال عنه قد شغب، والشغب من امارات الانقطاع، وعند ذلك يحكم عليه بالانقطاع إن هو بالغ في الصياح ويحكم لمناظره بالغبلة والفوز.

يقول الاصمعي ناظرني، المفضل عند عيسى بن جعفر، فأنشد بيت أوس بن حجر (٣٢):

وذات هدمٍ عارٍ نوا شرها

تصمت بالماء تولبا جذعا

فقلت له: ((هذا تصحيف، لا يوصف التولب بالاجذاع، وإنما هو ((جذعا)).

الجدع: السوء الغداء، قال: فجعل المفضل يشغب، فقلت له: تكلم كلام النمل وأصب لو نفخت في شبور (٣٣) يهودي ما نفعل شيئاً)) (٣٤). وهذا يدل على أن التوازن في الصوت يدل على النضج الأنفعالي وسريان حكم العقل على الغرائز، أما الصياح فإنه يؤدي الى فقدان التوازن وذهاب الموضوعية وحصول الخسارة.

٥- السؤال من أجل المعرفة لا على سبيل الاغلوطة:

ليس من آداب المناظرة أن يكون السؤال من أجل تخطئة المناظر وتصيد فرص انقطاعه، وإنما يجب أن يخدم البحث ويطوره. فهذا الفراء يروي لنا أنه عندما شاهد أن الناس قد كثروا على الكسائي فشغلوه عن طلابه، عمل له مسائل فيها محال وفيها صواب، فأقبل يقول قيصيب ويغلط، لما شغله من الناس، فلما صار الى منزله كتب له رقعة فأعاد له فيها ما سأله عنه، فقال فيها بالصواب كلها، وقال: ((كنت مشغولاً بمن كان عندي، وقد ظننت أنك أردت ببعض مسألتك أن تتغفلني ... ولا ينبغي لمثلك أن يفعل معي ذلك)) (٣٥).

٦- التأنى:

من آداب المناظرة أيضاً أن يدع السائل مناظره يتم جوابه وليس له أن يقاطعه. وعليه أن لا يسخر من إجابته وإنما يقوم ويصحح إن كان بالإجابة حاجة لذلك التقويم أو التصحيح، وأن لا يفرح بخطأ مناظره ويعلن انتصاره وفوزه، كما فعل اليزيدي في مناظرته للكسائي في حضرة الرشيد حين سأل الكسائي فاختأ، فضرب بقلنسوته الأرض وقال: ((انا ابو محمد (...)) فقال له يحيى بن خالد: اتكنى بحضرة امير المؤمنين، وتكشف رأسك، والله لخطأ الكسائي مع ادبه احب الينا من صوابك مع فعلك، فقال: لذة الغلب أنستني من هذا ما احسن)) (٣٦). وبعد ان اطلعنا على ما ادلى العلماء به من تعريفات للمناظرة وتعرفنا على اركان المناظرة، وآدابها

يمكننا ان ندلو دلونا ونضع لها تعريفاً فنقول: ان المناظرة هي فن المناقشة والنظر في المسائل تنتج عن اجتماع وتقابل طرفين من اهل الفكر والرأي أو العلم والادب في مجلس من مجالس العلم أو غيره بضم جمهوراً، يقع بينهما بحث في موضوع يتفق عليه سلفاً، أو يثار في المجلس، ومن آدابها التزام طرفيها بإظهار الحق والوصول الى الحقيقة، والإذعان لها من أي طرف جاءت، وقد تبدأ المناظرة برأي أو سؤال وتنتهي بانقطاع حجج أحد طرفيها واعترافه فتكون الغلبة للطرف الآخر (الند) وعموم الجمهور أو العلماء المتخصصين حكم بين المتناظرين.

المبحث الثاني:

اسباب نشونها:

الدارس للمناظرات اللغوية في مجالس العلماء للزجاجي يدرك ان هناك جملة من الاسباب أدت الى ظهور هذه المناظرات ابرزها ما يأتي:

١- السبب الديني: ويرجع الى الحرص الشديد على اداء نصوص الذكر الحكيم اداءً فصيحاً وسليماً الى أبعد حدود السلامة والفصاحة وبخاصة بعد أن اخذ اللحن يشيع على اللسان، ورغبة الداخلين في الإسلام من البلدان المفتوحة في تعلم لغة القرآن الكريم والعبادات الدينية. فهذا رجل من أهل أصبهان يسأل أبا حاتم السجستاني فيقول: ((تتعت المعرفة بنكرة؟ فقال: نعم إذا لم يوصف به غيره كانت النكرة كالمعرفة. قال الله جل وعز {قل هو الله أحد} (٣٧) فانه جل وعز معرفة، واحد نكرة، ولكن لما كان احد لم يوصف به غير الله صار معرفة)) (٣٨).

٢- السبب الاجتماعي:

والذي يبدو لي انه يرجع الى أمرين:

الأول: ان بعض العلماء والنحاة في ضوء هذه المناظرات كانوا يدافعون عن أسباب معيشتهم أولاً وقبل كل شيء، فالحفاظ على مكانتهم العلمية لدى الخلفاء والامراء يستلزم فوزهم في هذه المناظرات، فالعباسيون مثلاً لما قربوا الكسائي وتلاميذه وخصوهم بتربية أولادهم وبالأغداق عليهم إذ كان أهل الكوفة بالجملة اخلص لهم واحسن سابقة معهم على عكس أهل البصرة، اجتهد المقربون في التمسك بالحضوة التي نالوها ووقفوا بالمرصاد للبصريين فحالوا بينهم وبين التفوق في هذه المناظرات بكل ما يستطيعون من قوة. واذكر مثلاً لمناظرة جرت في مجلس من مجالس الخلافة تقصص عما قلته فقد كان الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد، وكانا ملازمين له يقيمان بإقامته ويضعنان بضعنه فأنشد الكسائي:

أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَا تُعْطَى الْعُلُوقُ بِهِ

رُئِمَانُ أَنْفٍ إِذَا مَا ضُنَّ بِاللِّبْنِ (٣٩)

فقال الأصمعي: ريمان أنف، فأقبل عليه الكسائي فقال له: اسكت ما أنت وهذا يجوز ريمانَ وريمانَ وريمان، ولم يكن الأصمعي صاحب عربية، فإذا رفع رفع بينفع ام كيف ينفع ريمان انف وإذا نصب بتعطى وإذا خفض رده على الهاء التي في (به) (٤٠).

والثاني: ان بعض الموالى كانت لديهم رغبة في تعلم لغة الدولة الحاكمة ليصلحوا بها امور دينهم وديارهم وليستطيعوا مشاركة العرب في ادارة شؤون الدولة، فهذه الحقيقة تعكس الحاجة الملحة التي كان يشعر بها الاعاجم لتعلم العربية ومعرفة قواعدها، وليتمكنوا من الاتصال بالفئة الحاكمة من جهة، ومن شق طريقهم الى الحياة الجديدة التي اقتضت معرفة العربية من جهة اخرى (٤١).

٣- السبب التعليمي:

كثيراً ما تقع المناظرات من اجل تحصيل العلم بين التلميذ واستاذ، أو بين الأقران أنفسهم على سبيل التعلم و تقريب العلم للأفهام، وتبادل المعلومات وما يكنزه كل منهم من ذلك العلم. فعندما ناظر الاخفش سيبويه قال له: ((إنما ناظرتك لأستفيد لا لغيره، فقال سيبويه: أتراني أشك في ذلك؟)) (٤٢). وهذا ابو علي القالي البغدادي تلميذ ابن درستويه يقول انه ((قرأ عليه كتاب سيبويه أجمع واستفهم جميعه وناظره عليه، ودقق النظر وكتب عنه تفسيره)) (٤٣). ولذلك فالمناظرات كانت وسيلة التلاميذ في نشر آراء اساتذتهم، وهي وسيلة من وسائل الاساتذة انفسهم في نشر مذهبهم وتفنيد مذاهب غيرهم. وهناك سبب اخر فيما آراه وهو ان الخلفاء والامراء وكبار الناس كانوا يرون في مثل هذه المناظرات والمطارات مجالاً للترف العلمي والثقافي وممتعة أدبية مفيدة، وقد تكون بعض هذه المسائل والمناظرات من وضع النحاة أنفسهم لتعليم الطلاب وترسيخ القواعد اللغوية والنحوية في أذهانهم، كما حصل في مجلس الكسائي مع المفضل بحضرة الرشيد، يقول المفضل الضبي ((جاءني رسول الرشيد يوم خميس بكراً فقال لي: أجب، فدخلت عليه ومحمد (٤٤) عن يمينه، والمأمون عن يساره، والكسائي بين يديه باركاً، وهو يطارح محمداً والمأمون معاني القرآن، فسلمت فرد وقال: اجلس، فجلست فقال لي كم اسم في (سيكفيكم الله) (٤٥)؟ قلت ثلاثة أسماء يا امير المؤمنين، أولها اسم الله تبارك وتعالى لا إله إلا هو، والثاني اسم النبي (صلى الله عليه وسلم)، والثالث اسم الكفرة، فالياء والكاف المتصلتان بالسین لله جل وعز، والياء والكاف المتصلتان بالهاء للنبي (صلى الله عليه وسلم)، والهاء والميم للكفرة. فقال: كذا اخبرنا الشيخ، وأشار بيده الى الكسائي والتفت الى محمد، فقال له: افهمت؟ فقال: قد فهمت يا امير المؤمنين، قال: فارد ذلك علي، فردّه، فقال: أحسنت (٤٦)).

٤- السبب الثقافي:

ويرجع الى رقي العقل العربي ونمو طاقته الذهنية نمواً أعدّه للنهوض برصد الظواهر اللغوية وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلاً تطرد فيه القواعد وتتنظم الاقيسة انتظاماً، فلذلك لاحظ تعدد الآراء والأجتهاد في المسائل اللغوية، فعندما جمع محمد بن عبد الله بن طاهر بين ابي العباس احمد بن يحيى و محمد بن يزيد الميرد. فسألها عن (توراة) ما وزنها؟ قال: احمد بن يحيى تفعله. قال: ما تقول يا محمد؟ قلت: ((ليس في كلام العرب تفعله إلا قليل نحو تنقلة (٤٧)، قال: فما هي عندك؟ قلت: فوعلة، واصله وورية، ثم

قلبت الباء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فصارت ووراء، ثم قلبت الواو الأولى تاء كما قالوا تراث وأصلها وراث، وتخمة وأصلها وخمة، والتوراة مأخوذة من وري الزناد، وتقديرها أنها توري الحكمة، أي تضيء)) (٤٨).

٥- السبب النفسي:

إذا اردنا ان نقول شيئاً في هذه المسألة نقول أن هذا السبب يرجع الى أن المناظرات تصير حيث يصير العلم، وحيث يحل العلماء، وحب الغلبة مجبول عليه الانسان في مظاهر الحياة المختلفة، وهذا ما يؤيده علم النفس الحديث، فكيف التناظر في ميادين العلم الذي هو أنبل الغايات وأسمى المقاصد؟ نعم، إذا كان مبعث المناظرات محض العلم واطهار الحقيقة فحبذا المطلب والغرض، لكنها على ما يبدو لي أنها قد شابت بالعصبية للمذهب أو للعالم الفلاني فكانت حرباً ضروساً؛ غير أنها محمودة العواقب على كل حال لما جادت عنه من نتائج القرائح المكنونة، فما نعمت اللغة وغنيت إلا من هذا السجل العلمي.

٦- السبب الطبيعي:

ويرجع الى طبيعة اللغة العربية وما انطوت عليه من تعدد اللهجات، وهذا كان سبباً في الخلاف اللغوي بين العلماء على قدر سماعهم أو بحسب انتمائهم، فكلما كنز العالم درر اللغة من البادية زادت قدرته على التفسير اللغوي، وتصحيح ما يظن خطأ وتخطئة ما يظن صحيحاً، كما أن الانتماء الى قبائل الشمال أو الجنوب له أثر كذلك، ولذلك حرص العلماء على أن ينهلوا من كل لغات العرب الشمالية والجنوبية ويوظفوا ذلك في مناظراتهم. فهذا الكسائي كان يرحل الى القبائل المتصلة بالكوفة ويدون ما يسمعه منهم يقول: ((فلما صرت الى ظاهر الكوفة ولقيت القبائل جعلت أسألهم فيخبروني مشافهة وبنشدوني الأشعار، فأنظر الى ما في يدي و الى ما أسمعه منهم فأجد الحجة تلزم ما عندي، فما زلت اكتب ما عندهم حتى نفدت نفقتي وشحب وجهي وجلدي، فصرت كأني رجل منهم، فأشتريت شملتين فأتزرت بواحدة وارتيدت بأخرى، وليئت كذلك ما شاء الله ثم رجعت الى الكوفة)) (٤٩).

المبحث الثالث: مميزاتها المنهجية:

قد تميزت المناظرات اللغوية في مجالس العلماء بجملة من المميزات على مستوى المنهج منها:-

١- اعتماد اصول النحو:

لقد اعتمد العلماء في مناظراتهم على أصول النحو وهي السماع والقياس لأثبات قاعدة أو صحة استعمال لفظة أو تركيب وستعرض لكل واحدة منها باختصار:

أ- السماع: طريق مهم اعتمده المتناظرون وجعلوه اساساً استندوا إليه في مناظراتهم وحججهم، وقد كانت هنالك رحلات يقوم بها الأعراب الى الأمصار والحوضر فيسمع منهم العلماء فيفيدون منهم في مناظراتهم فكان ذلك مظهراً من مظاهر اعتماد السماع. فنجد بعضهم يقبل على حلقة الأخفش (٥٠) (ت ١٧٧ هـ)، والاصمعي (٥١) وكانوا يفدون على مجالس العلم في البصرة، من ذلك ما يروى من ان يونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) كان له مجلس ينتابه فصحاء الاعراب ووفود البادية (٥٢). ونلاحظ أن ما يدور في مجالسهم وحلقات الدرس عندهم، كان يمثل جانباً آخر لهذا المسلك (اعني السماع) سواء اكان ذلك في صورة تعليم وتعلم ام في صورة مجالس ومناظرات بين هؤلاء العلماء. فقد سأل مقاتل بن سليمان أبا عمرو بن العلاء بحضرة يونس بن حبيب عن قوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون} (٥٣)، فاجاب يونس بما يفيد انه صفة الجنة، فقال: ابو عمرو لمقاتل: إن كان يونس سمع فخذ عنه، وفي هذا ترغيب من أبي عمرو في الاخذ بمن سمع، وحينما قال مقاتل ليونس، ما افتيتني سمعت؟ رد عليه يونس قائلاً: ((لو لم اسمع من الثقات ما افتيتك)) (٥٤). والذي اراه ان في اجابة يونس خير دليل على اعتماده السماع وانه لا يفتي في مجال اللغة إلا من سماعه. وحينما قصد يونس أبا عمر وبن العلاء ليسأله عن كلمة كان قد سمعها من عبد الله بن أبي اسحاق وهي (برق) بفتح الراء في قوله تعالى: {فإذا برقّ البصر} (٥٥)، أجابه ابو عمرو وبن العلاء قائلاً: ((يقال برقت السماء وبرق النبت وبرقت الارض، فأما البصر فبرق، كذا سمعنا)) (٥٦). الملاحظ أن ابا عمرو وبن العلاء كان يؤسس رأيه على ما ثبت في السماع عنده وقد بلغ اهتمامهم بالسماع حداً جعلهم يحتكمون الى الأعراب في مناظراتهم اللغوية، فيبعثون اليهم من يحضرهم ليسألوه وهذا ما فعله الكسائي في مناظرته مع سيبويه في مجلس هارون الرشيد، عندما اختلفا في مسألة من مسائل النحو أسموها (المسألة الزنبرية) عندها قال الكسائي ليحيى بن خالد: ((هذه العرب ببابك قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم اهل المصريين، وسمع اهل الكوفة واهل البصرة منهم فيحضرون ويسألون)) (٥٧). أويبعثون من يسمع من الاعراب إذا ما اختلفوا في بعض مناقشتهم اللغوية فحينما اختلف ابو عمرو وبن العلاء وعيسى بن عمر حول قولهم (ليس الطيب إلا المسك) ارسل خلف الاحمر (ت ١٩٤ هـ) ويحيى اليزيدي (ت ٢٠٢ هـ) ليسمعا من الاعراب الحجازيين منهم والتميميين (٥٨). وبلغ عدد المسائل التي اعتمد النحاة فيها السماع في مجالس العلماء اثنتي عشرة مسألة (٥٩). وهكذا نلاحظ ان استشهاد العلماء في مناظراتهم بما شافهوا العرب او بما أخذوه عنهم في مناظراتهم ومجالسهم العلمية، كان وسيلة لنقل المادة اللغوية كما استعملها العرب الناطقون بها، ووسيلة لاستقرار اللغة، وجمع شواهدا، فبرزت لنا اهمية هذه المناظرات في تأصيل هذا الاصل من أصول النحو العربي، ونشاطه علي يد علماء المناظرات.

ب- القياس: الاصل الثاني من أصول النحو العربي، وقد دعت المنافسة النحاة الى ان يعتمدوه في مناظراتهم، فهذا ابو اسحاق الزجاج يسأل جماعة في مجلسه عن تصغير (المهو ان) من قول رؤبه (٦٠):

قَدِ طَرَقَتْ اسْمًا بَلِيلٌ هَاجِعًا

تَطْوِي الْبِنَا مَهْوَانًا وَاسْعًا

فخاضوا في تصغيره فلم يرض ما جاءوا به، فقال: ((الوجه أن يقال مهين فاعلم، وقياس ذلك أن الاسم على ستة أحرف، وكل اسم جاوز أربعة احرف ليس رابعه حرف مد ولين، فقياسه ان يرد الى أربعة أحرف في التصغير، كما قالوا في سفرجل

سُفِيرَج، وفي فرزدق فريزد، وكذلك ما أشبهه، فوقع ياء التصغير في مهوان ثالثة ساكنة وبعدها واو، فوجب قلب الواو ياء وادغام الأولى فيها، فصارت بعد الهاء ياء شديدة وبعدها ثلاثة أحرف: همزة ونونان، فلو حذفت النون بطل معنى الاسم واختل، فحذفت الهمزة وأحدى النونين فقلت مهين كما ترى وان شئت مهيون فأظهرت الواو لأنها متحركة في الاسم قبل التصغير. وتقول في جمعه مهاون. قال والقياس عندي فيه أن يقال هوين، كما قيل في تصغير مقشعر قشيعر، وفي مطمئن طميين، هذا هو القياس، فاعلم ذلك)) (٦١). وبلغ عدد المسائل التي اعتمد النحاة فيها على القياس في مجالس العلماء للزجاجي ثلاث عشرة مسألة (٦٢). وهذا الأمر له أهميته في الدرس النحوي، لأنه أدى إلى تأصيل هذا الأصل ونشاطه على يد علماء المناظرات، ذلك لأنها تعتمد الأحكام العقلية والقياس حكم عقلي.

٢- التسابق نحو اصطناع العلل:

ناقش النحاة جوانب لغوية عديدة في المسائل التي حصل نقاش فيها، فكانوا يعللون كل مظهر من مظاهر اللغة سواء اكان بارزاً أم خفياً، مثال ذلك ما جرى بين أبي اسحاق ابراهيم بن السري مع رجل غريب دسه اليه ابو موسى الحامض، حينما قال له ما وزن كينونة عندك؟ فقال: ((فيعلولة، وأصلها كيو نونة، ثم قلبت الواو ياء لسبق الياء لها ساكنة، وادغمت الأولى في الثانية فصار كينونة ثم خففت فقيل كينونة، كما قيل في مَيّت وهَيّن وطَيّب، مَيّت وهَيّن وطَيّب. قال: ما الدليل على هذه الدعوى والفراء يزعم انها فعْلولة؟ قال: الدليل على ذلك ثبات الياء، لأنه لو كان أصلاً لزمه الاعتلال، لأنه لا محالة من الكون، فكان يجب أن يقال كونونة إن كان أصلها فعْلولة بإسكان العين، وإن كان أصلها فعْلولة بتحريك العين فوجب أن يقال كانونة)) (٦٣). وقد بلغ عدد المسائل التي احتاج النحاة فيها إلى التعليل في مجالس العلماء اربع عشرة مسألة (٦٤). والملاحظ من خلال هذه المناظرات انهم لا يكتفون بالوقوف ازاء الظاهرة اللغوية، وانما يذهبون الى ابعاد من ذلك فهم يعللون سبب حدوثها ولماذا ظهرت بهذا الشكل، ومن خلال هذه التساؤلات تكون تعليقاتهم شاملة ومتعددة. ومثال ذلك ما يرويه ابو محمد اليزيدي عندما دخل هو والكسائي على المهدي قبل أن يستخلف بأربعة أشهر، فقال المهدي: كيف نسبوا الى البحرين فقالوا بحراني أو الى الحصنين فقالوا حصني؟ فقال اليزيدي: ((أيها الأمير لو قالوا في النسب الى البحرين بحري لالتبس فلم يدر النسبة الى البحرين وضعت ام الى البحر، فزادوا ألفاً ونوناً للفرق بينهما كما قالوا في النسب الى الروح روحاني، ولم يكن للحصنين شيء يلتبس به فقالوا حصني على القياس. فسمعت الكسائي يقول لعمر بن بزيع لو سألتني الأمير لأجيبته بأحسن من هذه العلة، فقلت: أصلح الله الأمير، ان هذا يزعم انك لو سألته أجاب بأحسن من جوابي. فقال: قد سألته فقال: أصلح الله الأمير كرهوا أن يقولوا حصناني فيجمعوا بين نونين، ولم يكن في البحرين إلا نون واحدة فقالوا بحراني لذلك)) (٦٥). نلاحظ من خلال هذه المناظرة أن غاية الكسائي كانت ابراز المقدرة على ايراد العلل، والإدعاء بأن تعليقه أحسن وأوفق من تعليل خصمه، وليس المراد من هذا كله ابراز الحكم اللغوي، ولهذا كانت البراعة في التعليل تدل على الذكاء والفتنة، ولهذا صار التسابق نحو اصطناع العلل مظهراً سائداً بين النحاة المتناظرين. يقول ابن الوراق محمد بن عبد الله (ت ٣٨١هـ): ((وإذا جرت المناظرة بين العلماء، كان التعليل هو المقياس الذي تتحدد بموجبه منزلة النحوي ويعرف به مقدار علمه وسعة ثقافته)) (٦٦). ان ظاهرة تعدد العلل انما هي حسيطة جهود النحاة على مر العصور، إذ كان الخلف يضيف عللاً للمسألة الواحدة استناداً الى ما يجده عند السلف من علل، ولهذا رأيناهم قد أدلوا بدلوهم، فأوجدوا عللاً أخرى وضافوها الى علل سابقيهم فكثرت العلل وتعددت، في حين ان علة واحدة مستتبطة من روح المسألة تكفيها وتغنيها عما سواها من العلل الأخرى ولهذا لاحظنا كما قلنا سابقاً، ان في نفس الكسائي شيء آخر غير الاكتفاء بعلة واحدة، وهي اظهار مقدرته على اصطناع العلل ومن ثم التميز على الخصم، ولهذا التفتن في اصطناع العلل دور في رسوخ الحكم في ذهن المتعلم. من كل ما تقدم يمكننا ان نقول ان المناظرات النحوية اسهمت وبشكل كبير في رفد ظاهرة التفتن في التعليل وتعدده بحيث اصبح التعليل غاية بحد ذاتها وليست وسيلة، وربما كانت المباهاة واظهار العلل ومعرفة الكثير منها سبباً من اسباب تعدد العلل، فيلجأ العالم من أجل هذا الى اصطناع علل جديدة للحكم الواحد، فيستعرض بها ثقافته وملكاته الذهنية ليتميز على خصمه.

٣- الحجاج العلمي والعقلي:

الدارس لمناظرات العلماء في مجالس الزجاجي يلحظ ان أغلب المناظرات اتسمت بطابع التحليل العلمي والعقلي والتعليل المنطقي بمسائل اللغة. وهذا ما نجده عند الكسائي في مناظرته مع سيبويه والتي اشرنا اليها سابقاً والتي شاعت بالمسألة (الزنبورية) عندما طلب سيبويه من البرامكة ان يجمعوا بينه وبين الكسائي للمناظرة والمطارحة فعندما قال له الكسائي: ((ما تقول أو كيف تقول: قد كنت أظن ان العقرب اشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب، فقال له الكسائي: لحن، ثم سأله عن مسائل من هذا النحو، خرجت فإذا عبد الله القائم أو القائم، فقال سيبويه في ذلك كله بالرفع دون النصب، وقال له الكسائي ليس هذا كلام العرب، العرب ترفع ذلك كله وتنصبه فدفع سيبويه قوله)) (٦٧). عندها قال يحيى بن خالد: ((قد اختلفتما وانتما رئيساً بديكما فمن ذا يحكم بينكما؟! فقال له الكسائي هذه العرب ببابك قد اجتمعت من كل أوب (٦٨). ووفدت عليك من كل صقع (٦٩)، وهم فصحاء الناس وقد قنع بهم أهل المصريين وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم فيحضررون ويسألون، فقال يحيى و جعفر: قد انصفت، فأمر بأحضارهم فدخلوا وفيهم ابو فققس، وابو زياد، وأبو الجراح، وأبو ثروان فسألوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله، فأقبل يحيى على سيبويه فقال: قد تسمع ايها الرجل فاستكان سيبويه)) (٧٠). والذي أريد قوله بعد هذه الحكاية على طولها انها مثلت مظهراً من مظاهر الحجاج العلمي لدى النحاة خلال مناظراتهم اللغوية في قصور الخلافة واننا نجد ان الكسائي قد تميز عن سيبويه وانفرد بشخصية علمية واضحة واتجاه واضح في النحو، فالكسائي بقوله ((هذه العرب ببابك قد اجتمعت من كل أوب ووفدت عليك من كل صقع. .. فيحضررون ويسألون)) قد أرسى أصلاً من أصول المدرسة الكوفية وهو الاحتجاج بكلام العرب المتحضرين وهذا مخالف للأقيسة المدرسة البصرية، لأن مصدر القواعد الأصل هو النقل، فالكسائي حاله حال الكوفيين يرى ان كل منقول صحيح، لأن مدار صحة الكلام عندهم هو

اللغة المحكية الموجودة وليس القاعدة. فقد كان من عادة الكوفيين انهم ((إذا سمعوا لفظاً في شعر، أونداد كلام جعلوه باباً)) (٧١). وانهم ((لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للاصل جعلوه أصلاً وبوبوا عليه)) (٧٢).

٤- التأثر بالمذاهب الفقهية والابتعاد عن التفلسف:

ان المناظرات بين النحاة لم تكن بمنأى عن المذاهب القائمة آنذاك فترى ان بعض النحاة قد تأثروا بالمناظرات الفقهية والكلامية، فلحسن نظر الفراء قيل له: ما تقول في رجل سها في الصلاة ثم سجد سجدة السهو فسها؟ فقال: ((لا يجب عليه شيء، قيل له وكيف ذلك ومن أين قلت؟ قال: اخذته من كتاب التصغير؛ لأن الاسم إذا صغر لا يصغر مرة أخرى)) (٧٣). وكان أبو عمر الجرمي (٧٤) يوماً في مجلسه وبحضرته جماعة من الفقهاء، فقال لهم: (سلوني عما شئتم من الفقه فأني أجيبكم على قياس النحو، فقالوا له: ما تقول في رجل سها في الصلاة فسجد سجدة السهو فسها؟ فقال: لا شيء عليه، قالوا له: من أين قلت ذلك؟ قال: اخذته من باب الترخيم، لأن المرخم لا يرخم)) (٧٥). كما أننا نلاحظ ان بعض النحاة حاولوا الابتعاد عن التفلسف والتمنطق فنجد الكسائي حينما سئل عن اختلاف احوال (أي)، وتعليقه، أجاب بقوله: ((أي هكذا خلقت)) (٧٦) فالكسائي بإجابته هذه حاول الابتعاد عن التفلسف والتمنطق والتأويلات البعيدة.

٥- الاحتجاج بالقراءات القرآنية:

لقد كانت القراءات القرآنية مصدر مهم من مصادر النحاة ولقد احتجوا في كثير منها في مناظراتهم، فبلغ عدد المسائل التي احتجوا فيها بالقراءات القرآنية في مجالس العلماء احدى عشرة مسألة (٧٧)، منها ما قاله المازني، قرأت على أبي وأنا غلام: {فترى الودق يخرج من خلله} (٧٨) قال: ((فقال أبو سرار وكان فصيحاً اخذ عنه ابو عبيدة فمن دونه: {فترى الودق يخرج من خلله} (٧٩) فقال أبي: (من خلله) قراءة)) (٨٠) فقال: اما سمعت قول الشاعر: بنين بغمرة فخرجن منها

خروج الودق من خلل السحاب

وقال ابو عثمان: خلل وخلال واحد، وهما مصدران (٨١).

ومنها ما قرأ أبو عثمان: (لقد تقطع بينكم) (٨٢)، ثم انشد قول أبي عمرو بن العلاء:

كان رماحنا أشطان بنر بعيد بين جاليها جرور (٨٣)

بالرفع، وهو ظرف في الأصل، فصيحه اسماً ورفعته، قال ابو يعلى بن أبي زرعة، ((فمن قرأ بينكم؟) قال: يريد ما بينكم)) (٨٤). قال ابو يعلى: ((فتحذف الموصول وتترك الصلة، قال نعم أقول: الذي قام وقعد زيد، ومعناه الذي قام والذي قعد زيد)) (٨٥).

الخاتمة:

في الختام لا بد لي أن أضع حصاد رحلتي مع العلماء في مناظراتهم في مجالس العلماء للزجاجي بين يدي القاري الكريم: ان المناظرة هي فن المناقشة والنظر في المسائل تنتج عن اجتماع وتقابل طرفين من اهل الفكر والرأي أو العلم والأدب في مجلس من مجالس العلم أو غيره يظم جمهوراً، يقع بينهما بحث في موضوع يتفق عليه سلفاً، أو يثار في المجلس، ومن ادابها التزام طرفيها بإظهار الحق والوصول الى الحقيقة، والإذعان لها من أي طرف جاءت وقد تبدأ المناظرة برأي وسؤال وتنتهي بانقطاع حجج احد طرفيها واعترافه فتكون الغلبة للطرف الآخر (الند) وعموم الجمهور أو العلماء المتخصصين حكم بين المتناظرين. ان المناظرات اللغوية في مجالس العلماء اعتمدت على مجموعة من الأركان، هي: الموضوع وطرفا المناظرة، والمجلس والجمهور. التزم اغلب المتناظرين في مجالس العلماء بجملة من الآداب، منها الالتزام بكشف الحقيقة والتقابل وحسن الإصغاء، والابتعاد عن الصياح والسؤال من أجل المعرفة لا على سبيل الأغلوطة والتأني. ان الحرص الشديد على اداء نصوص الذكر الحكيم اداءً فصيحاً وسليماً الى أبعد حدود الفصاحة والسلامة، وخاصة بعد أن اخذ اللحن يشيع على الألسنة، ورغبة الداخلين في الإسلام من البلدان المفتوحة في تعلم لغة القرآن الكريم والعبادات الدينية كان سبباً من أسباب نشوء المناظرات اللغوية. ان بعض العلماء والنحاة من خلال هذه المناظرات كانوا يدافعون عن اسباب عيشهم أولاً وقبل كل شيء، فالحفاظ على مكانتهم العلمية لدى الخلفاء والأمراء يستلزم فوزهم في هذه المناظرات. كثيراً ما تقع المناظرات من أجل تحصيل العلم بين التلميذ واستاذة، أو بين الأقران انفسهم على سبيل التعلم وتقريب العلم للأفهام، وتبادل المعلومات وما يكتنزه كل منهم من ذلك العلم، ولذلك فالمناظرات كانت وسيلة التلاميذ في نشر آراء اساتذتهم، كما كانت وسيلة من وسائل الاساتذة انفسهم في نشر مذاهبهم، وتقنيذ مذاهب غيرهم. ان الخلفاء والأمراء وكبار الناس كانوا يرون في مثل هذه المناظرات والمطارحات مجالاً للترف العلمي والثقافي ومتعة ادبية مفيدة، وقد تكون بعض هذه المسائل والمناظرات من وضع النحاة انفسهم لتعليم الطلاب وترسيخ القواعد اللغوية والنحوية في أذهانهم. ان المناظرات جعلت العلماء حريصين على أن ينهلوا من كل لغات العرب الشمالية والجنوبية ويوضفوا ذلك في مناظراتهم. اعتمد المتناظرون السماع، وجعلوه اساساً استندوا عليه في بعض مناظراتهم وحججهم، ولقد بلغ عدد المسائل التي اعتمد النحاة فيها على السماع في مجالس العلماء اثنتا عشرة مسألة، وهذا الأمر له أهميته في الدرس اللغوي، فلقد كان وسيلة لنقل المادة اللغوية كما استعملها العرب الناطقون بها، ووسيلة لاستقراء اللغة وجمع شواهدا، فبرزت لنا أهمية هذه المناظرات في تأصيل هذا الأصل من أصول النحو العربي ونشاطه على يد علماء المناظرات. كما اعتمد النحاة على السماع في بعض مناظراتهم كذلك اعتمدوا على القياس، ولقد بلغ عدد المسائل التي اعتمدوا فيها على القياس في مجالس العلماء ثلاث عشرة مسألة، وهذا الامر له أهميته في الدرس النحوي لأنه ادى الى تأصيل هذا الأصل ونشاطه على يد علماء المناظرات، ذلك لأنها تعتمد الاحكام العقلية والقياس حكم عقلي. ان المناظرات النحوية اسهمت وبشكل كبير في رفد ظاهرة التقنن في التعليل وتعدده، بحيث اصبح التعليل غاية بحد ذاتها وليس وسيلة، وربما كانت المباهاة في

أظهار العلل ومعرفة الكثير منها سبباً من اسباب تعدد العلل، فيلجأ العالم من أجل هذا الى أصطناع علل جديدة للحكم الواحد فيستعرض بها ثقافته وملكاته الذهنية ليتميز على خصمه، ولقد بلغ عدد المسائل التي احتاج النحاة فيها الى التعليل في مجالس العلماء أربع عشرة مسألة. ان المناظرات بين النحاة لم تكن بمنأى عن المذاهب القائمة آنذاك فنرى ان بعض النحاة تأثروا بالمناظرات الفقهية والكلامية، كما اننا نلاحظ ان بعض النحاة حاولوا الأبتعاد عن التفلسف والتمنطق والتأويلات البعيدة في مناظراتهم. لقد احتج بعض النحاة بالكثير من القراءات القرآنية في مناظراتهم واعتبروها مصدر هام من مصادرهم اللغوية فبلغ عدد المسائل التي احتجوا فيها بالقراءات في مجالس العلماء احدى عشرة مسألة. ان المناظرات اللغوية خدمت اللغة، وان مجالسها كانت رحاباً لبحث علومها في مرحلة وضع الأصول، ثم ساهمت في تطورها وانضاج علومها، كما ان في نصوص المناظرات اللغوية مادة معجمية، وان فيها فكراً لغوياً اصيلاً فاض به علماء اللغة على شتى مذاهبهم.

الهوامش

الزجاجي: هو ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي شيخ العربية في عصره، ولد في نهاوند ونشأ في بغداد وسكن دمشق وتوفي في طبرية من بلاد الشام في شهر رمضان سنة ٣٤٠ هـ، وقيل بدمشق سنة ٣٣٧ هـ او ٣٣٩ هـ. سمي الزجاجي لكثرة ملازمته لأبراهيم بن السري الزجاج، الذي قرأ عليه النحو، ومن مؤلفاته: الجمل الكبرى، والإيضاح في علل النحو، والزاهر في اللغة، وشرح الألف واللام للمازني، وشرح خطبة أدب الكاتب، والأمال، واللامات، ومجالس العلماء وغيرها كثير. ينظر انباه الرواة ١٦٠/٢، بغية الوعاة: ٢٩٧، ونزهة الألباء: ٣٧٩ ووفيات الأعيان ١: ٣٨٩.

العين / للخيل بن احمد الفراهيدي ٣ / (نظر).

ينظر تهذيب اللغة / للأزهري (نظر).

ينظر المصدر السابق (نظر) ولسان العرب / لأبن منظور / ١٤ (نظر).

ينظر لسان العرب ١٤ / (نظر).

العين ٣ / (نظر).

ينظر المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية / د. رحيم جبر ٤٦.

تاج العروس / للزبيدي (نظر).

رسالة الآداب في علم آداب البحث والمناظرة: لمحمد محي الدين عبد الحميد، ٦.

ينظر مجالس العلماء، للزجاجي ٩، المجلس رقم (٤)، والأشياء والنظائر للسيوطي ٣ / ٩١ – ٩٢.

ينظر المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية ص ٥٥ – ٥٦.

مجالس العلماء ١٩١ المجلس رقم (٩٢).

مثل مناظرة قتادة للزهري، في مجلس سليمان بن عبد الملك، وقد غلب قتادة الزهري، ينظر (البيان والتبيين ١/ ٢٤٣)، ومناظرة الأوزاعي لغيلان الدمشقي في مجلس هشام بن عبد الملك (ينظر العقد الفريد ٢/ ٣٧٩ – ٣٨٠).

مثل مناظرة ابي محمد البزبيدي والكسائي في مجلس الرشيد (ينظر مجالس العلماء) المجلس رقم (١٢٠).

مثل مناظرة سيبويه للكسائي في حضرة البرامكة (المصدر السابق) المجلس رقم (٤) وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٧٠. مجالس العلماء ٩، المجلس رقم (٤).

المصدر السابق ٢٧٠ المجلس رقم (١٢٧)، وينظر معجم الادباء ١٣/ ١٩٢.

مجالس العلماء ١٦٤ المجلس رقم (٧٦).

المصدر السابق ١٦٧ المجلس رقم (٧٦).

معجم الأدباء ١٦/ ١٢٤.

مجالس العلماء / للزجاجي ٢٦٩ المجلس رقم (١٢٧).

المصدر السابق ١١٥ المجلس رقم (٥٣).

ينظر المصدر السابق ١٧٨، المجلس رقم (٨٤).

كشف المعاني والبيان ٥٤.

ينظر مجالس العلماء ٢١٦، المجلس (١٠٣).

معجم الادباء ١٦/ ١٢٤ – ١٢٥.

كشف المعاني والبيان، والهيللة: حكاية لا إله إلا الله يقال هلل وهيلل إذا حكى ذلك اللفظ الشريف، والحوقة: حكاية لا حول ولا قوة إلا بالله. مجالس العلماء ٢٣٤ رقم (١١٣).

كشف المعاني والبيان ٦٥.

المصدر السابق ٦٤.

ينظر المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية ٨٠ – ٨١.

ديوان اوس بن حجر ١٣.

الشبور: البوق الذي ينفخ فيه.

مجالس العلماء ١٤، المجلس رقم (٧).

المصدر السابق ٢١١، المجلس رقم (١٠١).

مجالس العلماء ٢٥٥ – ٢٥٦ المجلس رقم (١٢٠).

الإخلاص / الآية رقم (١).

- مجالس العلماء ١٤٩، المجلس رقم ٦٨.
- البيت لأفنون التغلبي، ينظر مجالس الزجاجي المجلس رقم (١٧). ومغني اللبيب ٦٧/١ والرئمان: مصدر وهو ان تحب الناقة ولدها فتلزمه وتحك انفها به دون ان ترضعه. والعلوق: الناقة التي تعلق قلبها بولدها، وذلك أنه نُجِر عنها ثم حُشي جلدُه تبناً أو حشيشاً، وجُعِل بين يديها حتى تشمه وتدر عليه، فهي تسكن اليه مرة ثم تنفر عنه ثانية، تشمه بأنفها ثم تاباه بقلبها، فيقول: فما ينفع من هذا البو إذا ما تشممنه ثم منعت درّتها، ينظر مجالس العلماء المجلس رقم (١٧). والبيت يضرب لمن يعذك بلسانه كل جميل ولم يفعل منه شيئاً لأن قلبه منطوٍ على ضده، كأنه قيل له: كيف ينفعني قولك الجميل إذا كنت لاتقي به، فشبه ذلك بهذا. ينظر مجالس العلماء ٤٢ المجلس رقم (١٧).
- ينظر في اصول اللغة والنحو / فؤاد حنا ترزي ١٠٥.
- اخبار النحويين البصريين / للسيرافي ٤٩.
- طبقات النحويين واللغويين ١٢١.
- المراد به الأمين بن هارون الرشيد (ت ١٨٩ هـ).
- سورة البقرة الآية ١٣٧.
- مجالس العلماء ٣٥ – ٣٦ المجلس رقم (١٦).
- هي الانثى من الثعالب.
- مجالس العلماء ١٢١، المجلس رقم (٥٥).
- مجالس العلماء ٢٦٦ – ٢٦٧ المجلس رقم (١٢٦).
- ينظر الإمتاع والمؤانسة ١٣٩/٢.
- ينظر أمالي الفالي ٢٦٩/٢.
- ينظر الفهرست ٤٣.
- سورة الرعد الآية (٣٥) وسورة محمد الآية (١٥).
- مجالس العلماء ٦٥ المجلس رقم (٢٩).
- سورة القيامة الآية (١٧).
- مجالس العلماء ٢٤٧ المجلس رقم (١١٦).
- مجالس العلماء ٩ – ١٠، المجلس رقم (٤).
- ينظر المصدر السابق ١ – ٤، المجلس رقم (١).
- وهذه المسائل في المجالس الآتية: (١، ٢، ٣، ٤، ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٦٢، ٦٣، ٧٨، ١٢٦، ١٣٣).
- ديوان رؤية ٩٣، وقد فسر الزجاج الموهوّن الواسع من الأرض البعيد، وفسره ابن منظور بالواطئ من الأرض. ينظر لسان العرب (هون).
- مجالس العلماء ٢٩٦ – ٢٩٧، المجلس رقم ١٣٥.
- وهذه المسائل في المجالس الآتية: (٢، ٢٢، ٢٤، ٣٥، ٤١، ٥٢، ٦٢، ٦٦، ١١٥، ١١٧، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٦).
- مجالس العلماء ٣٠٩، المجلس رقم (١٤١).
- وهذه المسائل في المجالس الآتية: (٤، ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٣١، ٥٩، ٧٦، ٧٨، ١٠٤، ١١٤، ١١٧، ١١٨، ١٣٣، ١٤١).
- مجالس العلماء ٢٨٨ – ٢٨٩، المجلس رقم (١٣٣).
- علل النحو / لأبن الوراق ٧٢.
- مجالس العلماء ٩ المجلس رقم (٤).
- من كل أوب: أي من كل جهة.
- الصقع: الناحية.
- مجالس العلماء ٩، ١٠، المجلس رقم (٤).
- همع الهوامع ٤٥/١.
- الاقتراح ٨٤.
- مجالس العلماء ٢٥١ المجلس رقم (١١٧).
- ابو عمر الجرمي: اسمه صالح بن اخذ عنه المبرد، وانتهى اليه علم النحو في زمانه، توفي في سنة ٢٢٥ هـ بغية الوعاة ٢٦٨.
- مجالس العلماء ٢٥٢ المجلس رقم (١١٧).
- مجالس العلماء ٢٤٤ المجلس رقم (١١٤).
- وهذه المسائل في المجالس الآتية: (٣٤، ٨٩، ١٠٧، ١١٣، ١١٦، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٤٤، ١٥٠).
- سورة النور الآية رقم ٤٣، وسورة الروم الآية رقم ٤٨.
- هذه قراءة الأعمش، اتحاف فضلاء البشر ٣٢٥.
- مجالس العلماء ٧٥ المجلس رقم (٣٤).
- المصدر السابق ٧٥ المجلس رقم (٣٤).
- سورة الأنعام ٩٤ (وقرأ بالنصب).
- لسان العرب مادة (بين).
- مجالس العلماء ١٤٣، المجلس رقم (٦٤).

* وقرأ بالنصب في (بينكم) نافع وحفص والكسائي وابو جعفر، وقرأ الباقر بالرفع على الأتساع في الظرف إذا اسند الفعل اليه نظير قوله تعالى { هذا راق بيني وبينك } بالجر، اتحاف فضلاء البشر ٢١٣. مجالس العلماء ١٤٣ المجلس (٦٤).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الاربعة عشر: ابن البناء الدميطي (١١١٧ هـ)، مطبعة حنفي، ١٣٥٩.
- اخبار النحويين البصريين، للسيرافي (حسن بن عبد الله المرزبان - ٣٦٨)، اعتنى بنشره وتهذيبه، فريثس كرنكو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، باريس، ١٩٦٣ م.
- الاشباه والنظائر في النحو: جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م).
- الاقتراح في علم اصول النحو: جلال الدين السيوطي، ط٢، حيدر آباد - الدكن، ١٣٥٩ هـ.
- الامالي في لغة العرب: أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٨ م.
- الامتناع والمؤانسة: ابو حيان التوحيد، صححه وضبطه وشرح غريبه احمد أمين، وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د. ت.
- انباه الرواة على أنباه النحاة/ للقفطي، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠ م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للسيوطي تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، د. ت.
- البيان والتبيين: للجاحظ (عمرو بن بحر الجاحظ ت ٢٥٥ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٦٨ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق عبد الستار احمد فراج واخرين، د. ت.
- تهذيب اللغة: للزهري (ابو منصور محمد بن احمد الأزهرى ت ٣٧٠ هـ)، تحقيق د. عبد السلام سرحان، مراجعة الاستاذ محمد النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت.
- ديوان أوس بن حجر - تحقيق محمد يوسف نجم، ط٣، بيروت ١٩٧٩ م.
- ديوان رؤبة، تحقيق وليم بن الورد، بيسك، ١٩٠٢ م.
- رسالة الآداب في علم آداب البحث والمناظرة: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٧، مصر، ١٩٥٨ م.
- طبقات النحويين واللغويين: ابو بكر الزبيدي، حققه محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣ م.
- العقد الفريد ابن عبد ربه الاندلسي، تحقيق احمد أمين، احمد الزين، ابراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٦.
- علل النحو: ابو الحسن محمد بن عبد الله بن الوراق (ت ٣٨١ هـ) تحقيق ودراسة: د. محمود جاسم الدرويش، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد، ٢٠٠٢ م.
- العين: الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، تصحيح: اسعد الطيب، ط٢، قم، ١٤٢٥ هـ.
- الفهرست في اخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم: محمد بن اسحاق النديم (ت ٣٨٥ هـ)، طهران، ١٩٨٧ م.
- في أصول اللغة والنحو: د. فؤاد حنا ترزي، دار الكتب، بيروت، ١٩٦٩ م.
- كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان للعلامة الشيخ ابراهيم الأحمد الطرابلسي، دار التراث، بيروت، د. ت.
- لسان العرب، لابن منظور (٦٣٠ - ٧١١ هـ)، تعليق علي شيري، دار احياء التراث العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٨ م.
- مجالس العلماء: لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (ت ٤٣٠ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، وزارة الارشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢ م.
- معجم الأدباء: لياقوت الحموي، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.
- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب: جمال الدين بن هشام الانصاري (ت ٧٦١ هـ)، تحقيق د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، ط٥، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، ١٩٧٢ م.
- المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية: د. رحيم جبر الحسناوي، دار اسامة للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩ م.
- نزهة الألباء في طبقات الادباء: كمال الدين ابي البركات الانباري حقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، مطبعة المدني، مصر، ١٩٧٦ م.
- همع الهوامع: جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٤ م.
- وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان: ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد خلكان (٦٨١ هـ)، تحقيق: د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨ م.